لغة القرآن بين الجمال و الرقيّ

د. بن فطة عبد القادر

abdelkader.benfetta@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطمبولي ـ معسكر / الجزائر

تاريخ الإرسال :2019-10-19 تاريخ القبول: 2019-12-25تاريخ النشر: 2019-12-31

الملخص

نزل القرآن الكريم في جزيرة العرب، و الأمة العربية تمثّل ذروة الفصاحة، وهو إنساني الرسالة، إلا أنّه عربي النص، مستشرف اللغة، مشرق البيان بوجه من اللغة الناطقة، وتبقى هذه اللغة أصلا قويما في تمتين النظام اللغوي العربي.إنّها ثروة لغوية لا تنفد.هذا التقييم الطبيعي مختص بالقرآن ،لا يشاركه أيّ كلام بشر .

اجتمع في لغته أصل من الجمال و الرقيّ. ذلك ما دعا علماء اللغة أن ينهلوا من روافده، وقد نتج عنه امتداد ملكة الباحثين لاستخراج جملة من أسراره، فأضفت عليهم سيلا من المعارف في النحو و البلاغة والأصول والفقه والتفسير...وهذه الكنوز العلمية الهائلة رسّخت النواة الصحيحة التي انبثقت عنها مدونات علوم اللغة في مرحلة التأصيل التي أصبحت تغذي الحركة اللغوية من فيضها المتدفّق، ثمّ امتدّ شعاعه الهادي إلى الحواضر العربية، حتى استُقطبت في أبعاد متفاوتة.

الكلمات المفتاحية : : جمال لغة القرآن،رقيّها، النظام اللغوي العربي.

Abstract

When The Quar'an was revealed in the Arabian Peninsula, the Arab nation was the most eloquent one ,the Quar'an has a human and a universal message , however its text is Arabic, its language is prospective as well as its rhetoric is shining, thus its language is a deep-rooted source to strengthen the Arabic linguistic system as it is a limitless linguistic fortune, this evaluation is devoted only to Quaran and not to any other human discourse.

The language of the Quar'an combines both aesthetic basis and sophistication, that's why the linguists attempt at deriving from it, and this has led to the extending of the competence of researchers to extract some of its secrets, thus it has provided an abundant supply of

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

knowledge in grammar rhetoric, Islamic jurisprudence and interpretation ... These scientific treasures have established the correct basis from which the corpus of linguistic sciences have derived, enriching the linguistic movement in all Arabic towns.

The asked question is: Did the Qur'an surpass the scholars competence in deepening scientific research in the Arabic language, and stabilizing its bridges between the mental and linguistic sciences, from the features of the beauty and sophistication of its language?

Keywords: The beauty of the language of the Qur'an, its sophistication, the Arabic linguistic system

مقدمة:

تمثل اللغة العربية جوهر الجودة للنصّ ترد لدوافع سياقية، زاخرة بالمعاني النفسية تحمل أسرارا جمالية، وتتضمن مقاصد راقية متعاضدة مع لوازم فكرية ظاهرة أو خفية. فهي عنصر اتّسع مداه في أعماق القرآن الكريم، ووجه من وجوه الإعجاز جيء به لتهذيب السريرة، والخروج من أوهام الغريزة و ما يقتضيه المقام مع الحضور الذهني. إنّها من المظاهر البارزة في تراثنا، لها خصائصها وسماتها التعبيرية والدلالية مما جعلها موضع اهتمام لدى القدامى، كونها من معالم لغة القرآن لما لها من صور جمالية. و لأهميتها انكبّ اللغويون على الاقتراب منه لإظهار قدراتهم الإبداعية تنسجم مع طريقة قراءاتهم، فرسموا دورها، وشخّصوا طابعها بصورة واضحة في فصاحة القرآن.

البعد الجمالي للغة العربية في القرآن الكريم

لقد تمرّدت لغة القرآن على النمط العربي لتغدو نافذة في ملكة العلماء في التأليف، لم يجدوا متنفسا لهم إلا في سموّها الذي نمّى قدراتهم وحرّكها ليستلوا منها صفاء إنتاجهم، فأدركوا أنّها تتّسم بالانفتاح الحسي الجمالي (للقرآن مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي، جماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، مداته وغنّاته، واتصالاته وسكناته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور.) [1]

لو تأملنا هذه اللغة لوجدناها مشحونة بالجمال الذي يحمل البهجة الغامرة التي اجتاحت أعماق النفوس المطمئنة لتنفلت من الهموم، تنغمر في أجواء روحانية مفعمة بالرحمة الإلهية (ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه ترتيب كلماته، ترتيبا دون كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، لقد وصل هذا الجمال إلى قمة الإعجاز) [2].

واليقين العميق بأنّ فضل لغة القرآن لا يقف عند الفائدة العلمية، بل هناك سمو في الجمال الخلقي يصدق بقدر من التأنّه والعفاف فالقارئ يجد نفسه أمام ما تعرضه الآيات القرآنية من مضامين تتجاوب مع الموقف المسبب لهذا الجمال فعند قوله تعالى: (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً) نوح 2 فالآية بنسيجها اللغوي تصورّ الضلال والزيغ و ما يولده

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من إحساس يؤدي المعنى الحقيقي، فما كان على نوح عليه السلام إلا إن يتوجّه إلى الله بدعاء متّسم بإيقاع عنيف تنتابه موسيقى مهيبة. فالتعبير صادر عن بشر مرسل جاهد كثيرا وعانى طويلا.

فالنص يحمل بيانا دقيقا على صبر نوح من عناد قومه، فنلمس تعبيرا بديعا وتصويرا فريدا يخلق في النفس التجاوب مع اللهجة المؤثرة عن نوح عليه السلام، وإدراك أطماع القلوب الداعية. هذا يجعل القارئ يعيش مع المشاهد، وينتقل من مفردة إلى أخرى دون عناء رابطا بداية الآية بآخرها. قد طغى على التعبير توازن ذو نغمات معبرة، وبالمقابل نجد دعاء لطيفا على لسان زكريا عليه السلام قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً) مريم 4 إيقاع الآية مَرِن يعكس حكمة زكريا ويبعد عنه العقدة رغم أنّه كان محروما من الولد، ويجعل ألفاظ النص واسعة الدلالة اجتمعت، واتسعت لتعبّر بإيضاح عن قصد هذا النبي الكريم .

إذ لم تكن لغة القرآن يوما من الأيام أضعف فعهد قوتها تجاوز القرون، ولم يبد الهون عليها، فهيمنت هيبتها وتحولت ذات قوة وسلطان، فتفتّحت أعين العلماء عليها وهي يومئذ ميدان للإنتاج و الإبداع، فامتدت إلى أصحاب المذاهب والعقائد، فاستقرت الأذهان بعد ما كانت مضطربة، وتلقّت النفوس الجلد بقدر ما كانت تعاني من خصومات المناظرات بين الملل والنحل. لو لم تكن هذه اللغة ذات جمال ومتعة ذوقية لما اتّخذت لنفسها القوة والتنزّه(لقد أثبت القرآن جدارته بصفة الربط بين المتلقي والنص بوشائج متينة، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع: الواقع النفسي و القدرة على إثارته على ممرّ العصور، فتنبش في مكونات أساسية في السلوك البشري، وههنا مخاطبة الخالق لما خلق.) [3]

لقد كان لها أثر كبير في حياة الفكر و نشاطه بلغت منه مبلغا عجيبا في رقيّ العقل، فكانت سلاحه المسخّر في ميدان القلم واللسان، وصلت به إلى مرحلة الإنتاج الأصيل والجديد بعد أن كان يتخبّط في الركود والتقوقع، فامتلأت الرفوف بالكتب فكان نتاج العقول مختلفا يجمع بينها التمازج و التفاعل تحت إمرة خصائصها الأصيلة فاتّسع نطاقها، وظهر في ميدانها عدد من نوابغ العلم الذين تعددت ثقافتهم في جوانب متعدّدة من فقه وبلاغة. فقد أسهبوا في إظهار ضوابطها من خلال لغة القرآن ووظفوا ملكتهم في التعامل معها فهي مبنية على القوانين تحكم دلالات الألفاظ والتراكيب. وألغت مبدأ التبعية قصد تطوير النظام اللغوي جعله منارا يبعث شعاعه، وقد سلك علماؤه الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسائله، فاستقرؤوا اللغة لاستخلاص الأصول، فكانت قياسا يثبتون بها القواعد للتعليل و الإلزام. و قد ارتكز الدرس اللغوي على المنطق والاجتهاد في فهم النصوص و الوصول إلى التخريجات. فالمنطلق الذي تأسّس عليه هو النص القرآني بعد أن استقرت لغته لدى العلماء فوقفوا عند دراسة القضايا اللغوية لمعرفة الأسس و نظامها في السياق.

فاللغة اختطت منهجيتها من القرآن الكريم، أدخلت في بناء النظام اللغوي للعربية. فكانت علومها ذات طابع ثابت، وموضوعاتها تأخذ الصدارة في الدراسات ذات الصلة بالعلوم المعرفية. فجعلها القرآن عنصرا في التفكيرو وسيلة في نقل المفاهيم لغزارة المعاني والمقاصد، صارت لغة المصطلحات العلمية لدى الفرق الدينية و المذاهب العقلية(هي لغة التخاطب العلمي والفكري، حملت كلّ مصطلحات العلوم و الفنون والأفكار غير العربية، وذلك حين أفسحت مجالا للغات الإنسانية أن تحل في أبنيتها و مقاساتها اللغوية عن طريق الاشتقاق والتعريب، فاستوعبت حقائق العصر العلمي و اختزنت كل مظاهر العصر الحضاري[4]. فوجدوا في مكوناتها الغاية في تحقيق المعالجة المنطقية للتصورات المخزونة بصور أفضل وأكثر نضجا، فاستقرت مفاهيمها في دلالتها. فبفضل القرآن أصبحت ركيزة رئيسة لدى أهل العلم من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصوليين و لغويين ومفسرين. فما قدمه القرآن من إضافة نقّح المادة اللغوية لذوي الاختصاص في اللغة لتوثيق علمهم.

وجدت اللغة أوج نشاطها في حضن القرآن الكريم، فنضجت المسائل وتأصّلت المصطلحات. ولذلك انبرى اللغويون إلى وضع آليات كفيلة بالحفاظ على النظام اللغوي في الكتابة. و عظم ذلك بملامسة ما يكتنزه النص القرآني من بيان وبديع ومعاني. حفّزهم إلى تصنيف المؤلفات تكون حصيلة ثراء استلهمه أهل اللغة لينتفع به علماء اللغة والشريعة.فقد أمدّ القرآن الدرس اللغوي بذخيرة للاحتجاج بالكلام الفصيح للتأكيد على مرجعية القرآن في الموازنات اللغوية، واستنطاق حقيقتها المبثوثة في التراث.

لعل أكثر ميادين العلوم قربا منها علوم القرآن، ذلك لأنّها تعني بمعرفة كنهها وحقائقها، وأهل العلم هم معدن هذه اللغة، فقد بيّنوا الحاجة إليها، وطريق تحصيلها لأنّ الغاية عندهم الإحاطة بجوهرها حتى لا يخرج المتعلم عنها، فهي لا تحتمل الزيادة والنقصان، فقد رعوا خصوصيتها وضرورة بعدها عن التنافر. إنّها ثورة تتناغم مع مبادئ القرآن الكريم، ولازمة تعصم لغته من الطاعنين وتحميها من ابتزاز عنادهم، وستبقى الرادع لألدّ أعدائه. فلا عجب أن يكون نظامها محطة إلهام، ومهبط إشراق، وركيزة عقدية في استقامة الرؤى وتنوير الأفكار.

فالنص القرآني يضفي عليها صفات ملموسة تتجلى للبصر، ينطوي على اعتبارات أبعد مدى و أكثر أهمية من مجرد صورة للأساليب، إنّها تتطلب معرفة وذوقا. فهي تهتم بنمو العلوم في جو تسوده الراحة أي كل ما يتعلّق بالأمانة العلمية، وتشمل حركة المرور، و تأمين نقل معانيها في جو مريح هادئ غير منهك للأعصاب. فالنص القرآني كائن الذي يساهم في توفير التفكير النقيّ، و يؤمّن مساحة الإنتاج العلمي لتأدية وظيفة صحية للعقل و وظيفة جمالية للنفس اللذين يمتّعان المتلقي بمناظر خلابة تبدّد السأم، وتفتح أسارير النفس(واعلم أنّ لكل معنى نوعا من اللفظ هو أخصّ به أولى، وضربا من العبارة، هو بتأديته أقوم، وهي فيه أجلى وما إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقول أخلق، كان للسمع أدعى، و النفس إليه أميل) [5]

إنّ التعرّف على علاقة اللغة العربية بالنص يتطلّب اقتفاء أثر الأوائل بدءا بالصاحبة والتابعين للوقوف على عناصره الأصيلة، فهم أساس صلاحيته. فقد وضعوا المقومات الأولى من خلال تلاوة القرآن كما سمعوه عن الرسول صلى الله عليه سلم أثناء صحبتهم له، وعن صحابته، والحفظة من بعدهم. فكانوا يلتزمون بما أقرأهم به حرفا حرفا، وحركة سكونا(في كلّ بلد ومصر وجماعة كانوا يقرئون الناس ويأخذون القراءة عنهم عرضا آية آية، كلمة كلمة، مدّة مدّة) [6]

إضافة إلى ذلك أنّ أهم مظاهر الاتصال الاستقرار المرتبط بالإعجاز الذي أكسبها موقعها الحصين في لغة القرآن، فجذب إليها الملكات النقيّة للعيش معها في أمن، فكشفت عن أصالتها في الفهم والقدرة على الابتكار، ولم تلبث حتى تمخّض عنها ازدياد في النشاط الفكري والثقافي للدراسات القرآنية واللغوية خدمة للقرآن الكريم لفهم ما يصعب من دقائق الأساليب. فاستقرار اللغة العربية شكّل أهم مقوماتها لأنّه وجد الأرضية خصبة في النص القرآني للاستعانة به في التحليل و التقعيد، ووجود الحاجة العلمية عند المتعلّم في إتقان فهم علوم العربية.

فالاستقرار اللغوي نشأ على أساس تخطيط رباني، ودراسته على الورق يجب أن تكون عميقة، لأنّه أخذ أبعادا جديدة تتساير وتطور العلوم، وقام بتغيير شامل وتشكيل جديد لخواص الكتلة اللغوية. توالت الحقب استنبط العلماء تنوّعا معقولا في علومها، وكان التركيز على استقرارها الذي طبع تصاميمها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالمرونة، إذ كان داخل أسوار النص القرآني يعزلها عن الدخيل الحوشي والسوقي. فقد أكسبها بداعة، وزاد في تمدّدها وتكيّفها لمعطيات الطور اللغوي .

إنّ تزايد أهل العلم عليها ناجم عن آثار الاستقرار ما دعا الباحثين من فروع العلم المختلفة للمشاركة في تثويرها. فالحاجة إلى تحسين الوضع العلمي و تنظيمه كان في الحقيقة من باعث الاستقرار، فقد أمّن للمتعلم الهدوء والراحة في محيط علمي و صحي، جنّبه جمود وفوضى الأساليب الوضعية التي كانت ضمن رقعة محدودة أقبرتها تعقيدات النعرات الجاهلية قال الباقلاني(402ه): (هو أدقّ من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، كيف لا يكون ذلك، أنت تحسب أنّ وضع الصبح موضع الفجر، يحسن في كل كلام، إلا أن يكون شعرا أو سجعا، وليس كذلك فإنّ إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزلّ عن مكان لا تزلّ عنه اللفظة الأخرى، بل قد تتمكن فيه) [7]

لم تقتصر العلاقة بين اللغة والنص القرآني على الاستقرار بل كان هناك مظهر آخر هندس شبكة أساليبها و تراكيبها القرآنية حتى صارت كالحدائق خلابة، ساهم في تنسيق أفكار العلماء، وتحديد نوعية المفردة لمختلف التراكيب من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ وعناصر الجمال ألا وهو الانسجام الذي أبعد الفوضى والانزعاج والضرر عن جمالها، قال الرماني 909ه في الذوق السليم الميّال إلى عذوبة التعبير في القرآن الكريم (السبب في التلاؤم و تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما، أمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد. و الفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، و سهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى في النفس، كما يرد عليها من حسن الصورة و طريقة الدلالة) [8]

فالانسجام يبني اللغة العربية بشكل متين وعجيب خال من التعرّج، لا يترك فرغات للطاعنين لينفذوا إلى أعماق النص فيجفّفوا هيكلها، فتغيب أشكالها الزخرفية والجمالية فعند قوله تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ) غافر18 فالألفاظ التي تتألف منها هذه الآية تنسجم مع المعنى والجو الذي يدور في إطاره النص تتحقق صورة الحزن. و نلاحظ تردد المفردات يشير إلى الرعب والوعيد فكلمة (أنذر والآزفة) تدلان على صوت الأسى والتهديد، فإيقاع الكلمات يشعر بعمق المضمون وحقيقة المشهد. فقد نقل لنا صورة اجتمعت فيها أسباب الوعيد(تجد البناء التعبيري قويا بجملته و تفصيله، بحيث نجد بالأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، فالشكل والمضمون وحدة متفقة السمات والخصائص.)[9] فقد أعطاها القرآن طابع الثبات مما جعلها مستقرة آمنة، وأضفى عليها البساطة و المتعة، قد منحها أهمية خاصة لكونها تمدّ الحماية للغة القرآن، كما أنّها بمرور الزمن أصبحت لها السيادة في التأليف. كما سمح للعلماء أن يقدّموا قمة إنتاجهم من تنظيم أفكارهم وفق مبادئ القرآن، يمنع الانتهاك والتجاوز الشخصي للنظام اللغوي للقرآن الكريم.

فالانسجام جعل اللغة على محور هندسي واحد، والملاحظ عليها وجود العلاقة الذوقية الجلية سواء كان المتلقي عربيا أو عجميا. فهي مصمّمة كوحدات مرتبطة فيما بينها، إذ أعطت أبعادها مقاساتها بشكل مدروس مع إعجاز فعند قال تعالى:(وَلَئِن لّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُوناً مّن الصّاغِرِينَ) يوسف 32 فصيغة (ليسجنّ ليكونا) هناك تناسب في الإيقاع ما بين الكلمتين بنون التوكيد الثقيلة والخفيفة والوقف عليها. فهذه النون بنوعيها المسبوقة بالقسم أضفت على الجملة نغما يوقظ النفوس التائهة بالعودة إلى ربّها، كما كشف لنا عن طبيعة المقام. فجمال التصوير رسم لنا صورة المرأة هي مشدودة إلى عرض الحياة الدنيا في أزهى حالة، إنّها في موقع تجد ما تشتهي، ولكنّها مع يوسف عليه السلام بهذا الإيمان والعفّة لم تحصل على غرضها. فهذه الآية أكثر إيحاء في تصوير ما وراء الواقعة من بلاء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقد أولى القرآن الانسجام أهمية خاصة في إضفاء الجمال على اللغة بجعل القوة والراحة من أعمدته لاستمالة الشعور اللامنتهي للمتلقي. فالانسجام يمثّل المظهر المعماري لجمالها، المشرف على فضائها تتجمّع حوله الدلالات والمقاصد طبقا لغاية منهج مقصودة في النظام اللغوي. لقد كان أثره جوهريا انعكس على النواحي الفنية والجمالية، إذ غدت كالنصب التذكاري فاخرة البهاء، مزيّنة مزخرفة ترمز إلى ارتقاء اللغوي للقرآن الكريم.

تأصيل النص القرآني لرقيّ اللغة العربية

ما يميّز اللغة العربية دعامة رئيسة من دعائم النمو اللغوي تلك هي ظاهرة الرقيّ التي انفردت بها في ظل النص القرآني، وتنضوي تحتها المادة اللغوية يجمع بينها معنى عام يدل عليه اللفظ بجميع اشتقاقاته في السياق وفي مستويات الخطاب. فعلماء الشريعة واللغة وقفوا وقفة تدبّر للكشف عن مستويات استعمالها في النص القرآني، ومن هنا كانت الحاجة إلى استقراء ورودها في موضعها ثمّ مقارنتها بوجوه استعماله في مواطن أخرى.

يمثّل الرقيّ المضمار العام الذي بموجبه يتم توظيف المعنى واللفظ، ويكون السياق دعامة الترابط بينهما، فالرقيّ يكسب اللغة النمو والتطور يتماشى و حاجات المقام (اللغة العربية قوة رقيا ما كانت لتصل إلينا لولا القرآن الكريم، بما وهبها الله من المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة، والتراكيب الجديدة، والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محط الأنظار، و الاقتباس منها مناط العز الفخار، غدت اللغة العربية تتألق تتباهى على غيرها من اللغات، بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال)[10]. فاللغة العربية تأخذ الصدارة في الميدان اللغوي، فهي تنقل المفاهيم و المقاصد ما يدل على ارتقائها الذي هو معلم النص القرآني، ومرآة إعجازه في تحقيق المعالجة المنطقية للدلالات المخزونة فيهما، وأصبحت أكثر قدرة على تنوير ذهن المتعلّم الذي إذ ما توسعت لغته كان أقدر على التجاوب مع غزير المعاني، وكلما نضج تفكيره استقرّت الدلالة.

لو تدبرنا رقيّ اللغة العربية لوجدناها تنبعث عن ترتيب منطقي يربط العام بالخاص ويجمع بين الشمولية والإحاطة يخضع للمنهج النص للقرآني الذي يتميّز بالاستقرار. فالتعبير القرآني وجّهها توجيها أصيلا؛ و أكثر إفادة ما يتلاءم و التطور اللغوي الذي يمكن من خلالها الحصول على مقاصد دقيقة تستميل اللغويين للاهتمام ببيان العلاقات بين المضامين والمقاصد. ما يميّز تلك العلاقات المنطقية في عرضها في موضعها الذي يتواءم و التطور الحاصل للدراسات المتعلقة بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، فلا إبداع للعقل البشري فيها إنّما عليه أن ينهل من نسيجها.

فالرقيّ اللغوي في القرآن يتضمن كل أنواع الدلالات في أيّ علم شرعي أو لغوي أو عقلي فهي زاخرة بكل المصطلحات، إذ لابد أن ندرك حقيقة مهمة أنّ هذه اللغة ضرورة يتطلبها التطور العلمي في كلّ المستويات الميادين، فهي تمثّل منظومة مفاهيم وتصورات تعدّ دعامة في وضع المصطلحات المتّصلة بالدلالة التي يعبّر عنها أيّ علم من العلوم. فالعلاقات الدلالية مثلا للمفردة القرآنية متميزة ومتّصلة أثرت الحقول المعرفية، فتحكّمت في مواضيعها مثلا في فقه اللغة ضبطت رقيّ المفردة دلاليا، فكلّ كلمة عشقت مكانها مراعاة للمواقف(كلّ لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، لذلك لا نجد ترادفا، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديد.) [11] فوجد العلماء الإنتاج غزيرا للحصول على المصطلحات المناسبة للتعبير عن مفاهيمهم و مقاصدهم، فلامسوا في النص القرآني المادة العلمية للتبويب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتصنيف يستعين بها المتعلم في إيجاد الكلمات والمعاني التي تنتاب ذهنه. فهي قادرة على الاستيعاب والحصر الكلي للمادة اللغوية إنّها وحدة متكاملة في البناء، إذ وجد فيها علماء الشريعة وسيلة للتعبير عن المقاصد، فتكاتفت جهودهم في وضع منهجية في توزيع أساليبها وتحديد أنواع العلاقات في الحقل الشرعي، فحولوها من استخدامها الشائع إلى استخدام شرعي .

فالرقيّ اللغوي يشكّل معجما يتطلب معرفة وذوقا ذا مغاز و أبعاد لغوية وجمالية عميقة، تساعد على نمو الإنتاج العلمي وتبلغ بالعلماء مبلغ النضج في استخدامهم المنظم للغة، فتكون عنايتهم بالبحوث اللغوية سبيلا يستدلون عليه من واقع الحياة ووقائعها لاستنباط الأحكام، وهذا النضج مرتبط بالنص القرآني .

فالغرض الأساسي للغة العربية هو خلق بيئة علمية يقع تحقيقها على عاتق المختصين بهندسة مؤلفات ذات صلة وثيقة بالإعجاز القرآني، و الحقيقة فإنّ جهودهم لا تقف عند هذا الحدّ بل تتعداه أعمق نحو استشراق آفاق مستقبل الدراسات اللغوية والشرعية. فهي تتوفّر على مقومات تستمدّ منها دلالتها الصافية على مدار واسع وهو أنّ القرآن أكسبها الثبات والأصالة بثّ فيه الروح (أفاض الله سبحانه تعالـ الكلماتـ هذا الفيض نفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصا موسى، لكنّه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس منها، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك) [12]

لقد توسّعت اللغة نتيجة موضعها الحصين في صلب نص القرآن، جذبت العلماء تجنّد قدراتهم للزيادة في إنتاجهم العلمي. فهي ثمرة انبثقت من الإعجاز القرآني فعجلت بزوال التعسّف اللغوي للعرب، فكان الانتقال من لغة غير منتظمة إلى لغة أكثر ثباتا و أقلّ تعقيدا، فظهورها ليس مجرد الزيادة في عدد أساليب اللغة العربية إنّما إلى تغيير شامل وتشكيل جديد يعدّل من خواص المنظومة اللغوية. فإلى جانب علماء اللغة و الشريعة دخل مجالها علماء العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق... فأحضروا مهاراتهم العلمية التي تكونت لديهم عندما كانوا يعيشون تحت ضغط علوم الأعاجم الإغريق و الفرس و الهند، فلم يلبث اقترابهم من رقيّ اللغة العربية طويلا حتى تمخّض عنه زيادة هائلة من المعارف.

فأهميتها أنّها ترعرعت ونمت في كنف القرآن الكريم، و نشأت على أساس تصميم متين يبعث على الدهشة، وتشهد على عدم سبق الإنسان بالاشتغال في توظيفها. فهي لم تنشأ بصورة عفوية بعضها ميّت بعضها حيّ إنما وضعت كوحدة أرقى و أرفع من غيرها، نلمس فيها السر الإلهي من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف بأصالة رقيّها وبيانها اللذين يدركهما متذوّق العربية، وهذه الخاصية تجري في تناسق كامل مع النص القرآني. لقد توالت الحقب حتى وقتنا هذا استنبط خلالها العلماء تنوّعا هائلا من أشكال التعبير، فانعكس اهتمامهم بها في مؤلفاتهم و تصانيفهم العلمية حتى شملت تفاصيل دقيقة عن استقلاليتها، فاعترفوا برقيّها و دورها في الأداء، فركّزوا على روعة تصميمها ودقّة فنيتها و طابع المرونة، إذ هي ضمن أنساق بديعة داخل أسوار السياق أخرجت الدلالة من قواقعها ووّسعت مقاصدها.

فرقيّ اللغوي كان الباعث الأول لتأصيلها الذي أمّن للغة ترابطها ووظائفها الأساسية. فلم تعد النظرة إليها مجرد تخطيط لشبكة من المعاني، فقد أصبحت بفضلها إنسانية(لعل من أمارات الأصالة في هذه اللغة أنها أعطت العالم القديم نماذج من الاختصاصات الدقيقة، فالخليل بن أحمد وضع علم الذي أقام عليه معجم العين) [13]، من معالم التأصيل تنسيق استعمال المفردة، و ترتيب وتحديد نوعية الدلالات لمختلف المقاصد من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ، وتوجيه التطور الدلالي لفائدة النظام اللغوي فلما كان القرآن أشرف الكتب، فلا بد له بالضرورة أن يحيط بالمعاني و طرائق فهمها فزاد في روحها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتجدّدة بتنويع الاستعمال قال تعالى (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) الحجر 72 فالمعنى يوحي إلى الضلال، فقد لخص نظرات الجاهلين اليائسة الجامعة بين الإنكار والجحود، فقوم لوط فقدوا لبّهم وأنكروا فضل نبيّهم من وعظ وإرشاد، فقد لخصت كلمة سكرتهم وقفة فاحصة ومحللة لمبلغ الاعتساف والانحراف الذي انتهى إليه المجرمون، فاحتكم القرآن إلي هذا القسم ليعجّل لفنائهم بالعقوبة، أنّه لم يبق منهم أية باقية. ويعني هذا أنّ القرآن كان يرى في هذه القسم الذي ينبّئ عن فناء القوم، وشمّ فيه رائحة الانتقام الرباني.

فضلا عن هذا جاء التعبير بدلالة أخرى قال تعالى (لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) الحجر 15 فالأسلوب يوحي إلى غرض يريد القرآن إظهاره ألا هو السد والحبس، ويبدو من فعالية المفردة سكّرت أنّه خيّل إليهم أنّهم ما رأوا شيئا، والعلة في ذلك منبثقة من طبيعة أنفسهم هموم الذات، فقد رسمت بلاغة الأسلوب في مدلولها صورة للشخصية الجاحدة. ولنا أن نشير إلى رؤيتهم لا تشكّلها حالة نفسية، إنّما تشكّلها بواعث عقدية فاسدة، وهي الحالة التي تفجّر هاجس العناد والجحود. فالرقيّ اللغوي يقرّر عقدة دفينة و إحساس عنيف إلى اتّهام الرسول صلى الله عليه سلم بأنّه ساحر أفقدهم رشدهم ووعيهم، لكنّ اللفظة تعكس بطانة الكفر والافتراء والضلال.

إنّ رقيّ اللغة العربية يعكس لنا قيمة النص القرآني الذي فرض وجوده، فقد خصّص بينه بين أهل العلم سياجا روحيا لغرض المحافظة عليها. و ينقل لنا التاريخ بأنّ العلماء شيّدوا لها مؤلفات تعدّ قلاعا، إذ حددوا أهميتها ومقاصدها في كلّ الميادين العلمية. كما أنّ وجود الإعجاز القرآني زاد من هيبتها لتنفذ إلى أعماق الدلالة فتساعد على تهذيبها، وتمنع من تسرب أي دخيل يشوّه جمالها اللغوي(لقد ظل القرآن الكريم المقدّس على الدوام هو الحافز الرئيس للجهود المتّصلة في الإنباه على اللحن و الأخطاء الشائعة، حفاظا على صورة العربية كما نزل بها القرآن) [14].

فقد ميّز النص القرآني أصالة اللغة العربية بميزات جليلة تتمثّل بالشمولية الواقعية الثبات، يصون سيادتها مقدّسة ويكفل لها خصوصيتها يمنع انتهاكها وتجاوزها. و تجدر الإشارة هنا أنّ علماء الشريعة و اللغة تفرّدوا بإدراكهم لأهميتها لذلك برز فيهم أول المخططين لعلم الدلالة الشافعي 150ه من خلال كتابه الرسالة فقد بيّن الخاص من الألفاظ العام، وبيّن وسائل تخصيص وتعميم الدلالة بالتركيز على القرائن العقلية اللفظية(فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، و أنّ فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره) [15]ومنهم الآمدي(631)ه الذي اهتم بالمسائل البيانية بغية استنباط الأحكام الشرعية من النصوص الدينية . لذا نجده يعالج موضوعات كثيرة في كتابه (الإحكام) على رأسها الحقيقة والمجاز. فنظرة الآمدي إلى البيان كانت علمية مؤسسة على تعيين مدلول اللفظ المتوخى إيضاحه في التركيب، وتظهر فطنته في إبراز الجوانب الدلالية في المواطن المختلفة من النص التي تتماشى مع تعاليم الشريعة.

ومن اللغويين ابن قتيبة(276ه) الذي ساهم في خدمة لغة القرآن الكريم، فقد عكف على دراسة أسرار القرآن اللغوية لاستنباط القواعد، فعرف كيف يقترب من لغة القرآن بأسلوب علمي جمع فيه بين ثقافته الخاصة و ذكائه بغية التوفيق بين العلوم اللغوية والشرعية فهو أشبه بعلماء الشريعة حتى أصبح مرجعا يعود إليه العلماء للاستشهاد بآرائه في التفسير اللغوي

لقد عني بخدمة القرآن، وانصبت دراسته على بلاغته معانيه، وكان يرى لا سبيل إلى مبتغاه إلا بالوقوف على أسرار القرآن اللغوية، و إدراك دقائقه، والإلمام بأساليب العربية، وكان حاضرا بذهنه وفطنته، فلا يقبل على كتاب الله وكلام العرب إلا مبينا للمعاني وأضرب الكلام . فتأويل مشكل القرآن و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تفسير غريب القرآن كانا فسيحين للظواهر البلاغية المتنوعة، غنيين بالمسائل اللغوية مضفيا عليها استقراءه متذوّقا جمال البلاغة وسموّها .

ومن أهل اللغة الذين التفتوا إلى لغة القرآن بغية التدبر و الدراسة ابن فارس(395ه) صاحب كتاب الصاحبي في فقه اللغة سنن العرب في كلامها الذي فيه جهدا في إخضاع علو العربية تحت تصرف لغة القرآن. لقد أحسّ بضرورة التقرب من لغة القرآن لمواجهة التحديات ومنها ظاهرة اللحن، وعدم الاكفاء بغرائب الكلمات وشواذ الصيغ، بل فهم أسرار لغة القرآن، وإدراك إعجازها الذي أعطى التفوق لها(لقد تنوّع إسهام ابن فارس في علوم القرآن في كتابه الصاحبي ما بين حديث عن المصطلح المفاهيم والمفردات تفسيرها، وحديث عن حروف المعاني "الأدوات" واستعمالاتها في التراكيب و مدلولاتها، وفي آراء تفردات حول لغة القرآن واستأثر بها دون غيره) [16].

فقد اهتموا بصورة خاصة في إضفاء معالم الرقيّ عليها توخيّا لتسرب التميّع والركاكة، وكنتيجة لذلك أخذت الأساليب الوضعية بالاضمحلال، وأصبحت غير مأمونة في تحقيق المقاصد نظرا لأنّ أهل العلم أعلنوا تذمّرهم و تركوها خارج أسوار الاستعمال اللغوي، فسيطرت اللغة العربية بأصالتها وعكست نفوذ تأثير النص القرآن في العقل، فكانت على درجة عالية من النظام والرقيّ، فقد طهّرا القرآن الكريم أساليب كثيرة من سفه الجاهلية ، ثمّ ارتقى بها إلى دلالات سامية تتجلى في التمييز بين الحق الباطل.

لقد أثّر الرقيّ اللغوي بأصالته في كثير من اللغويين الذين جاءوا عبر الحقب المتعاقبة حتى أنّ كثيرا منهم كتب على نفس المنوال الذي اتّبعه القدامى كعبد الغفار التواب في التصور اللغوي عند الأصوليين. إضافة إلى هؤلاء كان هناك من المفكرين من منحتهم مؤهلاتهم العلمية الحرية في الإبداع كتمام حسان في اللغة العربية معناها مبناها. فقد لاحظوا أهمية اللغة العربية والفرق بينها وبين غيرها، فلجمالها ورقيّها ميزات خاصة يشاهد منها دلالتها، واتّساع معانيها(تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، و حسن نظامها...حتى أنّه لا يعرف لها في أطوار حياتها لا طفولة لا شيخوخة، و لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى.) [17] فكان إنتاجهم العلمي في الحقل اللغوي ملائما للفترة الحاضرة والمستقبلية، ولهذا فإنّ العديد من الباحثين تعاملوا معها من منطلق تأصيلي، وهذا يعني أنّ دراستهم تمت من خلال منظور شمولي يأخذ بعين الاعتبار التعقيدات والتداخلات بين المدارس الحديثة الوضعية التي تداخلت فيها الفروع العلمية الرئيسة بجوانبها المتنوعة كعلم النفس وعلم الاجتماع.

فالنص القرآني ارتقى باللغة إلى مستوى عال لا تعسّف فيه، بل هو دال على قيمتها الدلالية، و دقّة استعمالها، فكان له معجمه الخاص الذي تفرّد به، وقرّب به الناس إلى الدين الواقع، ليمتثلوا إلى سبل الحقّ. ولا شكّ أنّ انتهاء العلماء إلى التفاعل معها من خلال إعجازه، ورعاية ضوابطه في التفسير التي لا ينبغي تخطّيها، و ما رأيناه في مؤلفاتهم النفيسة على مقدار النفع، فنشطت، واتّسعت ميادينها من جراء تزايد أهل العلم إليها فاشتغلت أفكار الباحثين المشعّة تجمع بين المتعة الفنية والجمال من ناحية. فكتبوا كتبا أوضحوا فيها أصالتها وفضلها، وأظهروا جمالها ورقيّا على خط مستقيم، وأثبتوا أنها ليس مجرد حلقات لغوية بقدر ما هو إشعاع روحي وعلمي ينبّئ أهل التعسف من العرب سوف يخسرون جزءا كبير من لغتهم بين هذا الثراء الهائل من الأساليب القرآنية التي وضعت أسس النظام اللغوي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش

[1] ـ الزرقاني (عبد العظيم)، مناهل العرفان، دار الكتب العلمي بيروت 2003 م 208/2
[2] ـ انفس المرجع، ص208
[3] ـ أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ط2دار المكتبي دمشق سوريا، ط2 419 1، ص29- 30
[4] ـ الشربجي(محمد يوسف)، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، التحديات المعاصرة، مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد 90 - السنة الثالثة والعشرون - حزيران "يونيو" 2003 - ربيع الآخر 1424ص95
[5] ـ الجرجاني، ثلاث رسائل في الإعجاز(الرسالة الشافية)، ص107
[6] ـ ابن مجاهد(أبو بكر)، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعار مصر، ص9
[7] ـ الباقلاني(القاضي أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، ار المعارف القاهرة ط1 1963، ص184
[8] ـ الرماني(علي بن عيسى)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد زغلولو محمد خلف الله، دار المعارف القاهرة ص88
[9] ـ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، الرسالة ط2 1402ه، ص65
[10] ـ الشربجي، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، التحديات المعاصرة، ص 2
[11] ـ الشربجي، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، التحديات المعاصرة، ص 2
[12] ـ الخطيب عبد الكريم، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي مصر ط1 1964، 2/ 295
[13] ـ السامرائي، اللغة الحضارة، ط1 المؤسسة العربية للدراسات النشر بيروت 1977، ص 33
[14] ـ الموسى نهاد، اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت قوى التحول، ط 1 دار الشروق عمان الأردن 2008، ص 46
[15] ـ الشافعي (محمد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية 1339ه، ص52
[16] ـ سليمان بن إبراهيم العايد، جهود علماء العربية في خدمة القرآن،"ابن فارس نموذجا"، ص جامعة أم القرى، ص509
[17] ـ الجندي أنور، اللغة العربية بين حماتها خصومها، ط1 مطبعة الرسالة بيروت، ص25

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com